مقاربة عرفانية للتواصل بين الثقافات في ضوء نظرية المخطط

هيروكو نيشيدا. جامعة شيزوكا، اليابان

A cognitive approach to intercultural communication based on schema theory

Hiroko Nishida. University of Shizuoka, Japan

إلياس بليح*[1]، عبد الحميد نوراني[2]

[1] جامعة قسنطينة 1 الإخوة منتوري (الجزائر) ilyas.bellih@umc.edu.dz

[2] جامعة زيان عاشور- الجلفة (الجزائر) a.nourani@univ-djelfa.dz

تاريخ الاستلام : 10 فيفري 2026 ؛ **تاريخ القبول :** 18 سبتمبر 2026 ؛ **تاريخ النشر :** 30 سبتمبر 2026

ملخص:

تقوم هذه الدراسة بفحص نظرية المخطط (Schema Theory) ومدى قابليتها للتطبيق في مجال التواصل بين الثقافات، وبالأخص ما تعلق بالتكيف الثقافي للمغتربين (Sojourners). وقد تم استخلاص ثمانية أنواع رئيسية من المخططات الذهنية الخاصة بالتفاعلات الاجتماعية، مع استقصاء وظائف هذه المخططات في معالجة المعلومات. وتحليل بنياتها الجوهرية عند التطبيق على سياق التكيف الثقافي للمغتربين، مما أسفر عن صياغة إحدى عشرة بديهية (Axioms) شملت المجالات التالية: تطور المخططات، والتنظيم الداخلي للمخططات، والوظائف الموجهة بالمخطط مقابل الوظائف الموجهة بالبيانات، وأخيراً تعديل المخططات وتغييرها.

الكلمات المفتاحية: نظرية المخطط؛ تواصل بين الثقافات؛ تكيف ثقافي؛ مغتربون؛ مخططات ذهنية؛ معالجة معلومات.

Abstract:

This article adopts a historical-philosophical approach to examine how ancient, medieval, and modern conceptions of nature entrenched human-centeredness and rendered nature a legitimate object of control and exploitation. Greek philosophy placed rational humans at the top of the cosmic hierarchy, medieval thought affirmed their status as the image of God, and modern philosophy (Bacon, Descartes, Kant) transformed nature into a mechanistic entity devoid of intrinsic value, confining ethics to humans alone. In response, contemporary environmental philosophies offer radical alternatives: deep ecology expands the self to include all beings, social ecology links ecological crises to social domination, animal rights theories grant nonhuman creatures independent moral standing, and land ethics extend responsibility to the entire biotic community. The philosophical outcome is a shift toward an ecocentric perspective and a planetary ethic grounded in mutual respect, nature's intrinsic value, and sustainability.

Keywords: schema theory; intercultural communication; cross-cultural adaptation; sojourners; schemata; processing information..

* Corresponding author, e-mail: ilyas.bellih@umc.edu.dz

1- مقدمة التّرجمة:

تندرج ترجمة هذا المقال ضمن مشروع عام؛ يهدف إلى تعريف القارئ العربي بمجال (اللسانيات الثقافية) (Cultural Linguistics)؛ والّتي تهتم بدراسة التفاعلات القائمة بين الثقافة واللغة والعرفان الفردي والجماعي، وقد وجدنا في (نظرية المخططات الذهنية) للباحثة اليابانية: (هيروكو نيشيدا) إحدى الأطر التفسيرية لأحد أهم تلك التفاعلات؛ والمتمثلة في التكيف الثقافي لدى (المغتربين)، حيث تنطلق من فرضية مفادها أنّ العقل لا يستقبل المعلومات باعتبارها بيانات مجردة، بل يتعامل معها عبر (مخططّات التفاعل الاجتماعي الثمانية (PSI schemas))، والتي تشتغل باعتبارها خرائط إدراكية تنظمّ التجارب والخبرات، وتقللّ من القلق الناتج عن عدم اليقين في أثناء التعامل مع البيئات المجهولة.

ويوضّح المقال رحلة المغترب ابتداء من محاولته للحفاظ على سلامته النفسية وتوازنه، وصولا إلى «التوجيه الذاتي» لإعادة بناء هياكله الذهنية. كما تفسّر نظرية (نيشيدا)، من خلال التمييز بين معالجة المغترب للمعلومات «الموجهة بالمخططات» وتلك «الموجهة بالبيانات»، الكيفية التي تتحول بها الثقافة الجديدة إلى سلوك اعتيادي عبر آليات: الضبط، والنمو التراكمي، وإعادة الهيكلة. إلى غير ذلك من مصطلحاتٍ علميةٍ دقيقة نتعرف عليها داخل العمل.

وهدفنا من كلّ ذلك هو توظيف الأجهزة النظرية التي توفرها لنا (اللسانيات الثقافية) لتحليل الظواهر اللغوية المرتبطة بالتجارب الإنسانية، ودعوة الباحثين المشتغلين في حقل تحليل الخطاب لمقاربة عيناتهم النصية وفقا لهذا المنظور العلمي المعاصر.

ولا يفوتنا أن نشير إلى بعض المسائل التقنية التي تتعلق بالترجمة، حيث قمنا بحذف كثير من الإحالات على المصادر والمراجع، خاصة تلك التي تتعلق بالدراسات السابقة الواردة في مقدمة الدراسة، وإضافة مقاطع توضيحية تفاديا لإرباك القارئ.

2- مقدمة المؤلّفة:

لقد تمّ الاشتغال، في بحوثٍ شتى، على دراسة التّواصل بين الأفراد المنتمين إلى بيئات ثقافية متباينة، منها:

أ/ الدراسات المهتمة بالاستجابات النفسية تجاه البيئات غير المألوفة، مثل: ظاهرة **الصّدمة الثقافية**، التي يشار إليها في نموذجي **منحنى (U)**: U-curve، و**منحنى (W)**: W-curve [حيث يقومان بتمثيل المراحل النّفسية والعاطفية الّتي يمرّ بها الفرد عند الانتقال إلى بيئة جديدة؛ ثمّ العودة منها (المترجمان)]، وكذلك **نظرية الحدّ من الشكّ** [الّتي تفسّر ما يقوم به الأفراد، ولا سيما المغتربين منهم، من جمعٍ للمعلومات عن الآخر لرفع مستوى التّنبّؤ بسلوكه، وبالتّالي يقوم العقل بتبديد تلك الهواجس والارتيابات (المترجمان)].

ب/ الدراسات التي تشتغل على التوافق أو التكيف عبر الثقافات [حيث يشير **التو افق النفسي** إلى قدرة الفرد على الشعور بالارتياح والرضا في البيئة الجديدة، وتقليل الضغوط النّاتجة عن الاغتراب، بينما يشير **التكيف الاجتماعي** إلى قدرة الفرد على تعديل السلوك والمخططات الذهنية ليتلاءم مع قواعد البيئة المضيفة (المترجمان)]، ودراسة المثاقفة لدى المهاجرين [حيث تتميز **المثاقفة** بتبنّي الفرد لأنماط الثقافة الجديدة؛ سواء حافظ على ثقافته الأصلية أو لم يحافظ عليها (المترجمان)].

ج/ الدراسات المهتمة بالكفاية التواصلية بين الثقافات [حيث تشير **الكفاية** إلى قدرة الفرد على **التواصل** مع الآخرين بحصافة، وتشمل مختلف الأبعاد المعرفية والوجدانية والسلوكية (المترجمان)].

د/ الدراسات التي تحلّل القيم والتوجهات القيمية [حيث تشير **القيم** إلى المبادئ والمعايير الأخلاقية والجمالية التي يعتبرها الفرد أو الجماعة ذات أهمية (مثل الأمانة والصدق)، وأمّا **التوجهات القيمية** فهي تشير إلى المخططات الذهنية التي تحدّد الكيفيات التي تتعامل بها الثقافة مع المشكلات البشرية (مثل علاقة الإنسان بالطبيعة، أو طبيعة العلاقات الاجتماعية). (المترجمان)]، وهذا ما نجده في المبادرة الأكاديمية التي قامت بها: مجموعة دراسة نظم القيم الأوربية (EVSSG) سنة 1982.

هـ/ بالإضافة إلى الدراسات التي تهتم بالتفاعلات اللفظية وغير اللفظية.

وعلى الرغم من أننا قد اكتسبنا معرفة كبيرة من خلال هذه الدراسات، إلا أنّنا لاحظنا افتقادها إلى نظرياتٍ تواصلية تسندها. وسيظلّ البحث في التواصل بين الثقافات، في غياب الأسس التنظيرية، مفتقرا إلى بؤر تركيز دقيقة وتوجهات استراتيجية محدّدة. وكما يلاحظ (Berger, 1991, p110) أنّه «ليس كافيًا للباحثين أن يبرهنوا على قدرتهم على استخدام أدوات منهجية معينة، حتى عندما تُستخدم لدراسة القضايا الاجتماعية الراهنة وواضحة المعالم. إن القدرة على مواصلة البحث الرصين الموجه نظريًا هي التي تُنتج رؤى مهمة حول ظواهر التواصل على المدى البعيد».

نعالج في هذه الورقة البحثية، إذن، نظرية المخطط بهدف استجلاء ظواهر التواصل بين الثقافات، وخاصة ما يتعلق بقضايا **التكيّف**، من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية:

أ/ ما هي المخطّطات ؟

ب/ وما هي المبادئ التي يمكن صياغتها عند تطبيق نظرية المخطط على التكيف بين الثقافات؟

3- ما هي المخططات ؟

يُقال إنه عندما يتعرض الشّخص لموقفٍ مألوفٍ، فإنه يستعيد مخزونا معرفيا حول السلوك الملائم والدور المناسب الذي ينبغي عليه القيام به في هذا الموقف. وبمعنى آخر، يتشكل، عادةً، العالمُ الاجتماعي لكل طرفٍ في التواصل ضمن إطار من المعارف المألوفة والمكتسبة مسبقًا حول المواقف المختلفة. ويطلق على هذه المعارف المألوفة والمكتسبة مسبقًا: المخططات (أو المخططات الذهنية). ومفهوم المخططات هذا ليس جديدًا، بل هو ضاربٌ في جذوره حتى القرن 19م: فقد طور الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (Immanuel Kant) فكرةً مفادها أن خبرات الأفراد تتجمّع معًا في الذاكرة، لتشكل مفاهيم عليا (Kant, 1963). كما يمكننا أن نجد هذا المفهوم في مطلع القرن 20م أيضًا؛ فقد استقصت أعمال بياجيه (Piaget)، في العشرينيات، المخططات الذهنية لدى الرضع [من خلال مراقبة المنطق الحركي لديهم (المترجمان)]، كما اختبرت أبحاث بارتليت (Bartlett)، في الثلاثينيات، الذاكرة من منظور المخططات (Matlin, 1989, p.223). وعلاوة على ذلك، فقد شهدت السنوات الـ 25 الماضية توظيفا وتعريفا من قبل عدد لا بأس به من الباحثين. فعلى سبيل المثال: يوضّح (Kohen et al, 1993, p.28) المخططات بوصفها «حزما من المعلومات المخزنة في الذاكرة، والتي تمثل معرفة عامة حول الأشياء، أو المواقف، أو الأحداث، أو الأفعال». وفضلا عن ذلك، وبحسب تعبير تايلور وكروكر (1981)، فإن المخطط هو:

. . . بنية عرفانية تتكون في جزء منها من تمثيل لنطاق محدد من المثيرات [ويقصد بالنطاق أي موضوع أو موقف يثير استجابة العقل مثل: مخطط حفل زفاف، أو مخطط محاضرة جامعية (المترجمان)]. ويحتوي المخطط الذهني على معرفة عامة حول ذلك النطاق، بما في ذلك توصيف العلاقات القائمة بين سماته [والسمات هنا هي الخصائص التي تميّز النطاق، مثل: سمات الأستاذ: [+وقار]، [+معرفة]، [+ خبرة] ... (المترجمان)]، بالإضافة إلى أمثلة أو نماذج محددة من نطاق المثيرات ذاته ... كما يقدم المخطط فرضيات حول المثيرات الواردة، والتي تتضمن خططًا لتفسير وجمع المعلومات المتعلقة بالمخطط (Taylor and Crocker, 1981, p.91).

وبناء على ذلك، فإنّ المخططات الذهنية هي تجميعاتٌ معممة لمعارف مستقاةٍ من الخبرات السابقة، والتي تنظّم في مجموعات معرفية مترابطة، وتُستخدم لتوجيه سلوكياتنا في المواقف المألوفة.

حصل الباحثون، خلال الفترة الممتدة من أواخر السبعينيات إلى منتصف التسعينيات، على أدلّة دامغة تثبت أنّ سلوكيات الأفراد ترتبط ارتباطًا وثيقًا بما يختزنونه في عقولهم. فعلى سبيل المثال، برهن (Hudson, 1990) بوضوح على كيفية تخزين المخططات في الذاكرة طويلة المدى وكيفية استخدامها في العالم الواقعي. فمن خلال المقارنة بين ذاكرة أطفال ما قبل المدرسة حول حدث نوعي واحد (حضور جلسة واحدة [ولأول مرة] من ورشة الأداء الحركي الإبداعي)، وبين ذاكرتهم حول جلسات (عادية) متكررة من الورشة، وجد (هادسون) أنّ تذكر الأطفال للتفاصيل كان أفضل في حال حضور تلك الورشة الواحدة، مقارنة بحضور أربع ورشات [كانوا قد اعتادوا عليها]، وإن كانوا قد مالوا إلى استحضار التسلسل الكامل لأحداث الورشات الأربع بشكل أفضل؛ غير أنّ تفاصيل الورشات 1 و 2 و 3 استرجعت بشكل خاطئ على أنها حدثت خلال ورشة العمل الرابعة. وباختصار، فإنه مع تكرار ارتياد الورشة، يتشكّل قدر من المعرفة العامة حول العلاقات بين الأنشطة (أي يتشكل مخطط ذهني لـ «الورشة»)، ولكن بمجرد تشكل هذا المخطط، تتراجع القدرة على تذكر التفاصيل النوعية. وعلاوة على ذلك، فقد وجد (Hudson and Nelson, 1990) أن الأطفال، حتى في سن مبكرة، بإمكانهم «ترميم» القصص غير المتسقة تمامًا استنادا إلى معرفتهم (المخططية) بالعالم. فعندما سردت أمامهم أفعالٌ غير مرتبة (مثل، قصة غير منطقية تمامًا عن حفلة عيد ميلاد)، مال الأطفال إلى إعادة ترتيبها بطريقة أكثر دقة وملائمة للنظام المخططي الصحيح.

تُظهر هذه الدراسات أن معرفة الأطفال الصغار أيضًا منظمة وفق أطر مخططية؛ أي أن المخططات الذهنية لدى الأطفال في الذاكرة متشابهة بنويا ووظيفيًا للتمثيلات المخططية لدى البالغين. [وعلى الرغم من أن مخططات الأطفال في الذاكرة تشبه تلك الخاصة بالبالغين، إلا أنه تم العثور على اختلافات نمائية بينهما (المؤلفة)].

4- مخططات التفاعلات الاجتماعية:

مخططات التفاعلات الاجتماعية هي بُنى عرفانية تحتوي على معرفة خاصة بالتفاعلات وجهًا لوجه في البيئة الاجتماعية. تشير الأدبيات الموجودة إلى تكوين مخططات التفاعلات الاجتماعية على النحو التالي: عندما نتفاعل مع أفراد من الثقافة ذاتها في مواقف معينة لمرات عديدة، أو نتحدث معهم عن معلومات معينة بشكل متكرر، تتولّد المخططات وتُخزَّن في عقولنا. وكلما واجهنا المزيد من هذه المواقف المتشابهة أو كررنا الحديث عن تلك المعلومات، أصبحت المخططات أكثر تنظيمًا وتجريدًا وإحكاما. وبالتالي، يطور الأفراد المخططات من خلال خبراتهم المباشرة وأيضًا من خلال التحدث عن المعلومات المتعلقة بالمخطط. وعندما تصبح المخططات منظمة بإحكام، تصبح المعلومات التي تحتويها أكثر قابلية للاستخدام. ويبدأ الوصول إليها واستخدامها كوحدات معلومات فعالة بين أفراد الثقافة الواحدة. وكلما أصبحت المخططات أكثر تجريدًا وتنظيمًا وإحكاما، أصبح تواصلنا أسهل بكثير من خلال هذه المخططات التي تم صقلها بهذه الطريقة. وعلاوة على ذلك، تُصبح هذه المخططات سمة مميزة لسلوك أفراد تلك الثقافة.

5- أنواع المخططات:

تُصنَّف مخططات التفاعل الاجتماعي إلى عدة أنواع. فعلى سبيل المثال، يشير (Taylor and Crocker, 1981) إلى المخططات الخمسة التالية:

أ/ مخططات الأشخاص: وتحتوي على معرفةٍ حول أنماط الشخصيات المختلفة، بما في ذلك سماتهم الشخصية؛

ب/ مخططات الذات: وتحتوي على معرفة الفرد عن نفسه؛

ج/ مخططات الأدوار: وتمثل معرفة الأدوار الاجتماعية؛

د/ مخططات الأحداث أو السيناريوهات: وهي معلومات حول التسلسل المناسب للأحداث في المواقف الشائعة [تمت تسمية «السيناريو»، وهو نوع من المخطط، من قبل شانك وأبيلسون (1977). ووصفا فيه سيناريو المطعم الذي يحتوي على موضوع (الأكل في مطعم)، وأدوار نموذجية (الزبون والنادل)، وشروط الدخول (زبون جائع)، وتسلسل من المشاهد والأفعال داخل المشاهد (الطلب، والذي يتضمن الحصول على قائمة الطعام، وقراءتها، وما إلى ذلك) (المؤلفة)].

هـ/ المخططات الخالية من المحتوى: وهي معلومات حول قاعدة المعالجة الذهنية [البروتوكولات، أو القواعد المنطقية العامة التي يطبها العقل، مثل قاعدة: إذا حدث كذا فمن المرجع حدوث كذا (المترجمان)]. ووفقًا لتصنيف تايلور وكروكر، يشير أوغوستينوس وواكر (1995) إلى أن مخططات الأشخاص، والذات، والأدوار، والأحداث هي أنواع أساسية من مخططات التفاعل الاجتماعي. [وكأنّ المؤلفة هنا تخلص إلى هذه النتيجة الأولية: إذا أردت دراسة المغترب قم بالبحث عن هذه النقاط الأربعة: 1/ كيف يرى الآخرين؟ (المخطط أ)، 2/ كيف يرى نفسه؟ (المخطط ب)، كيف يفهم وظيفته ومكانته؟ (المخطط ج)، وكيف يتصرف في المواقف اليومية؟ (المخطط د)، وأما المخطط الأخير فلعلّ فيه تعقيدا جعل الباحثين يكتفون بالأساسيّ من المخططات (الأربعة المذكورة فقط) (المترجمان)].

في غضون ذلك، وجد (Turner. R, 1994) من خلال تجارب على الذكاء الاصطناعي (AI) أن المخططات الثلاثة التالية تلعب أدوارا حيوية عندما يقوم "نظام استنتاج مبنيّ على المخططات" (أي الذكاء الاصطناعي) بحل المشكلات:

أ/ المخططات الإجرائية: التي تحتوي على معلومات حول الخطوات الواجب اتخاذها أو الخطط الهرمية؛

ب/ المخططات السياقية: التي تحتوي على معلومات حول الموقف أو المعايير السلوكية الملائمة للسياق؛

ج/ المخططات الاستراتيجية: التي تحتوي على معرفة حول استراتيجيات حل المشكلات.

والمخططات الإجرائية (أ) في تصنيف (ر. تيرنر) تشبه النوع الرابع (د) من المخططات لدى (تايلور وكروكر)، وهو **مخططات الأحداث أو السيناريوهات**، كما أن **المخططات الاستراتيجية** (ج) تشبه نوعهما الخامس (هـ)، **المخططات الخالية من المحتوى**.

وعلاوة على ذلك، صنفت (ميشيلين تشي، 1981) المعرفة إلى الأنواع الثلاثة التالية: الإجرائية، والتقريرية، والاستراتيجية. ووفقًا **لتشي**، فإنّ المعرفة الإجرائية تدور حول المعلومات المرتبطة بالإجراءات في مواقف معينة، وأما المعرفة التقريرية فهي معرفتنا بالحقائق والمفاهيم. وتطلق **تشي** على المعرفتين الإجرائية والتقريرية اسم «معرفة المحتوى»، والتي تتميز بوظائف مرتبطة بنطاقات محددة (مثل، وظائفها المعتمدة على الموقف). وتوضح **تشي** كذلك أن المعرفة الاستراتيجية هي معلومات حول الاستراتيجيات المستخدمة في نطاقات مختلفة (أي أنها مستقلة عن الموقف)، ولا يمكن اكتسابها إلا بعد أن تتطور معرفة المحتوى بشكل كامل. وهنا نجد مرة أخرى، أنّ تصنيف **تشي** يتداخل مع تصنيفي (تايلور وكروكر) وتيرنر؛ فالمعرفة الإجرائية لدى **تشي** تشبه مخططات الأحداث أو السيناريوهات لدى تايلور وكروكر، والمخططات الإجرائية لدى تيرنر؛ في حين أن المعرفة الاستراتيجية تشبه المخططات الخالية من المحتوى لدى تايلور وكروكر، والمخططات الاستراتيجية لدى تيرنر.

ومن خلال ما تقدّم من فحص للمخططات الذهنية والأدبيات الأخرى ذات الصلة، يمكن استخلاص المخططات التالية باعتبارها أنواعا أساسية مسؤولة عن توليد السلوك البشري في التفاعلات الاجتماعية:

01/ مخططات الحقائق والمفاهيم: هي وحدات من المعلومات العامة حول الحقائق مثل «طوكيو هي عاصمة اليابان»، وحول المفاهيم مثل «الدراجات الهوائية هي تلك المركبات التي تحتوي على عجلتين، ومقعد، ومقود».

02/ مخططات الأشخاص: تحتوي على معرفة حول أنماط الشخصيات المختلفة، بما في ذلك سماتهم الشخصية؛ على سبيل المثال، «جون عصبي»، «تارو خجول»، أو «ماري سهلة المعشر». وبما أن لدينا تمثيلاً ذهنيا لما يعنيه أن تكون «عصبيًا» أو «خجولًا» أو «سهل المعشر» (أي أننا نمتلك مخططات الأشخاص)، فإننا نميل إلى تصنيف الأشخاص وفقًا لسماتهم الشخصية السائدة. وفي بعض الحالات، ترتبط مخططات الأشخاص بالصور النمطية أو التحيز (الأحكام المسبقة).

03/ مخططات الذات: والتي تحتوي على معرفة الأفراد عن أنفسهم (أي، كيف يرون ذواتهم وكيف يراهم الآخرون). فعلى سبيل المثال، تصف (هيزل روز ماركوس) مخططات الذات بأنها «تعميمات عرفانية حول الذات، مستمدة من التجارب السابقة، والتي تعمل على تنظيم وتوجيه معالجة المعلومات المتعلقة بها، والمتضمنة في التجارب الاجتماعية للفرد» (Markus, 1977, p.64). ومن ثمّ، تعدّ هذه المخططات بمثابة المكونات البنوية لمفهوم الذات، والأساس الذي تقوم عليه الهوية والتعريف الشخصي. ووفقًا لروي تيرنر (Turner R, 1994, P.45)، هناك ثلاثة مستويات على الأقل لتصنيف الذات (مخططات الذات) تكتسي أهمية بالغة في تشكيل المفهوم العام للمرء عن نفسه:

أ/ المستوى الأعلى: وهو إدراك الذات ضمن النطاق البشري، أي: استحضار السمات المشتركة للفرد مع بني جنسه تمييزا لهم عن الكائنات الحية الأخرى؛

ب/المستوى المتوسط: وهو تصنيفات (داخل الجماعة/ خارج الجماعة) والتي تُعرِّف الفرد بصفته عضوا في مجموعات اجتماعية معينة وليس غيرها (مثل: «أمريكي»، و«أنثى»)؛

ج/ المستوى الأدنى: وهو التصنيفات الشخصية التي تُعرِّف المرء بصفته فردا محددا (من حيث سماته الشخصية مثلا، أو من حيث الأنواع الأخرى من الفروق الفردية).

04/ مخططات الأدوار: هي المعرفة المتعلقة بالأدوار الاجتماعية التي تحدّد مجموعة السلوكيات المتوقعة من الأفراد في مراكز اجتماعية معينة. وهي تشمل الأدوار المكتسبة والموروثة. وقد كانت الأبحاث حول الأدوار الموروثة غزيرة، خاصة في مجالات الصور النمطية القائمة على الفوارق بين الجنسين والتمايز العرقي.

05/ مخططات السياق: تحتوي على معلومات حول الموقف والإعداد المناسب للمعايير السلوكية. ووفقًا لروي تيرنر (Turner. R, 1994, P.37-39)، فإنّ المعلومات التي تتضمنها مخططات السياق تشمل توقعات حول الإجراءات المناسبة التي ينبغي اتخاذها لتحقيق الأهداف في سياق معين (أي: تفعيل المخططات الإجرائية)، مثلما تشمل اقتراحات لاستراتيجيات معقولة لحل المشكلات (أي: تفعيل المخططات الاستراتيجية).

06/ المخططات الإجرائية: هي المعرفة المتعلقة بالتسلسل المناسب للأحداث في المواقف الشائعة. وهي تشمل خطوات محددة وقواعد سلوكية خاصة بكل حدث. ويؤدي تطبيق هذه المخططات إلى دفع الأفراد لاتخاذ إجراءات معينة. ويرى روي تيرنر (Turner. R, 1994, P.22) بأن المخططات الإجرائية هي أنظمة مميزة ومستمدة من عمليات تخطيط سابقة، أو من تسلسلات الإجراءات السابقة التي نجحت، أو من «الخبرة» المتجسدة في الأعراف المجتمعية أو غيرها. كما يؤكد تولفينغ

(1985) وزولا-مورغان وسكواير (1990) أيضًا على أن التمييز بين المعرفة التقريرية والمعرفة الإجرائية (أي، معرفة «ماذا» مقابل معرفة «كيف») أمر بالغ الأهمية، فعلى سبيل المثال، معرفة قواعد وتقاليد لعبة «البيسبول» لا تعني بالضرورة القدرة على ممارستها.

07/ المخططات الاستراتيجية: وهي المعرفة المتعلقة باستراتيجيات حل المشكلات. وهناك بعض الأدلة على أن أحد العوامل التي تؤثر على اختيار الاستراتيجية لدى البشر هو «مستوى خبرة الشخص». فعلى سبيل المثال، ووفقًا لباتيل وإيفانز وتشاولا (1987)، فإن الأطباء الخبراء في نوع معين من المشكلات يميلون إلى استخدام استراتيجية تسمى «الاستدلال التنبؤي»، والتي هي نفسها «الاستدلال الفرضي-الاستنتاجي»، ولكن الأطباء الأقل خبرة، أو أولئك الذين يحلون مشكلة خارج مجال خبرتهم، فإنهم يميلون إلى استخدام استراتيجية مغايرة [تعتمد على «الاستدلال الموجه بالبيانات» (المترجمان)]. إذًا، أحد العوامل المرتبطة بالمخططات الاستراتيجية هو مستوى خبرة الشخص فيما يتعلق بنوع المشكلة المطروحة. أمّا العامل الآخر الذي ينبغي إدراجه فهو «القيود على حل المشكلات» التي تكون مستقلة عن السياق. فبدلاً من تخزين المخططات الاستراتيجية المتعلقة بهذه القيود بشكل متكرر مع كل مخطط سياق تؤثر فيه، يتم تسجيل هذه المعلومات ضمن الاستراتيجيات المفيدة للتعامل مع تلك القيود (Turner R, 1994, P.47). فعلى سبيل المثال، فإن استراتيجيات التعامل مع «ضيق الوقت» تتجاوز خصوصية الموقف؛ فالقواعد الذهنية المستخدمة لإدارة الوقت في غرفة الطوارئ في المستشفى هي ذاتها التي تستدعى عند محاولة تدارك التأخر عن موعد ما، مما يثبت استقلالية هذه المخططات عن السياق المباشر.

لقد تزايد الاهتمام، مؤخرًا، بالبعد العاطفي (الوجداني) في أبحاث المخططات. فعلى سبيل المثال، طلب (شيفر وآخرون، 1987) من المشاركين تصنيف 135 كلمة عاطفية ووصف الحالات العاطفية النموذجية، ثم قاموا بإجراء تحليل تجميعي للبيانات التي حصلوا عليها. ومن خلال هذا التحليل، وجدوا أن العواطف تُخزَّن وفق نظام مخططاتي في الذاكرة طويلة المدى. كما يرى فيشر (1991) أنّ انفعالاتنا ما هي إلا استجابة مستمدة ممّا هو مخزن في ذاكرتنا من صور ذهنية، وهذا ما يفسر النفور التلقائي عند رؤية «السياسي التقليدي»، أو الشعور بالخوف والقلق عند زيارة «طبيب أسنان». وتشير دراسات أخرى أيضًا إلى أن مخططات العاطفة هي مفاهيم مبنية اجتماعيًا، تمامًا مثل أي مخططات أخرى. وتشير هذه الدراسات إلى أن مخططات العاطفة تلعب أدوارًا مهمة في التفاعلات الاجتماعية البشرية، وبالتالي ينبغي إدراجها باعتبارها عنصرا أساسيا ضمن المخططات الذهنية:

08/ مخططات العاطفة: تحتوي على معلومات حول الوجدان والتقييم مخزنة في الذاكرة طويلة المدى ويتم الوصول إليها عندما يتم تفعيل مخططات أخرى. ويتم بناء هذه المخططات في التفاعلات الاجتماعية على مدار حياة الفرد [وكأنها بهذا (المحرك الخفي) لكلّ المخططات السابقة (المترجمان)].

سأطلق على هذه المخططات الثمانية فيما يلي: «مخططات التفاعل الاجتماعي الأساسية» (PSI schemas).

6- كيف تعمل المخططات ؟

إذًا، كيف تؤدي هذه المخططات وظيفتها فعليًا في أثناء تفاعل الأشخاص بعضهم مع بعض؟ من خلال تجارب أجريت على أنظمة الذكاء الاصطناعي، يقترح روي تيرنر (Turner R, 1994, P.15-22) مسارا لتوليد «السلوك» في دراسته: سلوك نظام ذكاء اصطناعي يدعى (MEDIC):

أ/ عندما يجد المرء نفسه في موقف معين، فإنه يسعى للتعرف على مدى درايته بهذا الموقف عبر استرجاع مخطط أو أكثر من «مخططات السياق» من الذاكرة لتمثيل الحالة الراهنة؛

ب/ وعند العثور على «مخطط سياق» مناسب، والذي يمثل مواقف تفاعلية مشابهة، يقوم هذا المخطط تباعا باقتراح «هدف» ينبغي تحقيقه (من خلال وظيفة «تركيز الانتباه» التي يمتلكها مخطط السياق)؛

ج/ وبمجرد تحديد الهدف، يبحث مخطط السياق عن «استراتيجية» تتسم عادة بالفعالية في مثل هذه المواقف؛

د/ ثم يقترح مخطط السياق «مخططًا إجرائيًا» لتحقيق الهدف المنشود باستخدام «مخطط الاستراتيجية» المختار (أي، يتم استدعاء المخطط الإجرائي لاتخاذ أفعال محددة؛ وبعبارة أخرى، يحدد المخطط الخطوات التي ينبغي اتباعها، أو الخطط الهرمية أو القواعد السلوكية [التي تنظم كيفية الاستجابة للمؤثرات الخارجية في لحظة التفاعل (المترجمان)]؛

هـ/ وأخيرا، يؤدي تطبيق المخطط الإجرائي إلى قيام الفرد بأفعال معينة، مثل طرح أسئلة على الطرف الآخر، مما يساعده على تحديد السياق الحالي بشكل أوضح؛ أي، للعثور على «مخطط سياق» أكثر تحديدًا للموقف. وعند تطبيق مخطط السياق الأكثر تحديدًا، يبحث المخطط بدوره عن استراتيجيات ومخططات إجرائية ملائمة لتطبيقها على السياق الجديد. وكلما كان مخطط السياق الحالي أكثر تحديدًا، زادت فرصة اقتراح مخططات استراتيجية وإجرائية أكثر دقة وفعالية.

في النقاش السابق، اقتصر تيرنر على شرح الوظائف والعلاقات القائمة بين مخططات السياق والاستراتيجية والإجراء. ويعزى ذلك إلى أن العلاقات بين هذه المخططات الثلاثة والمخططات الأخرى لم تخضع لدراسة مستفيضة بعد. أما أندرسون (1983)، فقد أثبت وجود علاقات بين الذاكرة التقريرية (Declarative) والذاكرة الإجرائية (Procedural) باستخدام نموذج حاسوبي يدعى ACT* (وهو اختصار لـ Adaptive Control of Thought، وتشير النجمة إلى أن هذه النسخة هي تعديل للنموذج الأصلي ACT). وتتوافق الذاكرة التقريرية في دراسة أندرسون مع مخططات الحقائق والمفاهيم، والأشخاص، والذات، والأدوار في تصنيفنا. وفي المقابل، تتوافق الذاكرة الإجرائية مع مخططات الإجراء. ووفقًا لأندرسون، تخزن الذاكرة الإجرائية «قواعد الإنتاج»، وبالتالي فهي معنية بالأفعال. إذ تحدد كل قاعدة من هذه القواعد الشرط الدقيق الذي ينبغي أن يتم فيه تنفيذ فعل ما. وهذا يشير إلى أن الذاكرة الإجرائية، في تعريف أندرسون، تحتوي على وظائف «مخططات السياق» التي تم وصفها في تصنيفنا. فعلى سبيل المثال، إذا رأى شخص ألسنة لهب تخرج من منزل، فهذا هو السبب الذي يدفع الشخص إلى اتخاذ إجراء الصراخ: «حريق !». والفكرة العامة هنا هي أن السلوك هو استجابة لموقف راهن. بمعنى آخر، يتم التعرف على الموقف أولاً ثم يتم اتخاذ الإجراء المناسب. وهذا يتفق مع الافتراض الجوهري لتيرنر (1994)، الذي يرى أن مخطط السياق يتم تفعيله أولاً عند ظهور مشكلة ما، ثم يبحث هذا المخطط عن مخطط إجرائي لاتخاذ الفعل الملائم. وخلال عمل نظام ACT*، تحدث العمليات التالية:

(أ) عمليات التشفير: والتي تضع المعلومات حول الحالة الراهنة للعالم الخارجي في الذاكرة النشطة [وهي إحدى الميزات المهمة في نظام ACT* إذ تعدّ نظاما معقدا متعدد المكونات. ولقد تم استبدال مفهوم التخزين قصير المدى الذي يعمل ببساطة كمستودع مؤقت للمعلومات، بمفهوم نظام الذاكرة العاملة النشط الذي له دور وظيفي في مجموعة واسعة من المهام العرفانية (Cohen et al., 1993, pp. 71-90). (المؤلفة)].

(ب) عمليات الاسترجاع: والتي تستدعي المعلومات من الذاكرة التقريرية وتضعها في الذاكرة النشطة؛

(ج) عملية التعرف (أو المطابقة): والتي تقارن جميع البيانات النشطة في الذاكرة مع «أجزاء الشرط» الموجودة في جميع قواعد الإنتاج المخزنة في الذاكرة الإجرائية (مثلا، إذا كانت الذاكرة النشطة تحتوي على عبارة: (هدفك هو شراء الحليب)، فسيتم مطابقة هذا مع إحدى قواعد الإنتاج، (إذا كان هدفك هو شراء...))؛

(د) عملية الإجراء: والتي تقوم باستحضار الخطوات الإجرائية الناتجة عن تطابق قواعد الإنتاج، ووضعها في حيز التنفيذ داخل الذاكرة النشطة.

(هـ) عمليات الإنجاز: التي تحوّل الأوامر المخزنة مؤقتًا في الذاكرة النشطة إلى سلوك فعلي (مثل تنفيذ أمر (اذهب إلى المتجر) كإجراء سلوكي).

وهكذا، ومن خلال التجارب التي أجريت على الذكاء الاصطناعي، نصل إلى فهم كيفية تحويل المعلومات المخزنة في المخططات الذهنية إلى إجراء سلوكي. ومع ذلك، فقد يثار سؤال حول ما إذا كان الذكاء الاصطناعي يمكنه محاكاة الوظائف المعرفية البشرية أم لا. وفي هذا الصدد، وصف سانفورد (1985) العلاقة المناسبة بين برامج الإدراك الحاسوبية والإدراك البشري قائلا:

على الرغم من أن تصميم البرامج ودراسة المبادئ الكامنة وراء الأنظمة الذكية مجالٌ قائمٌ بذاته، إلا أن له تداعيات واضحة إلى حد ما على دراسة العقل البشري. فمن الصعب كتابة برامج تحاكي الأنشطة البشرية الجوهرية دون دراسة كيفية قيام البشر بالأشياء في الوقت نفسه، ومن الحماقة وضع نظريات للإدراك البشري دون الأخذ في الاعتبار إمكانية التطبيق الحاسوبي لهذه النظريات. (Sanford, 1985, P6).

بالإضافة إلى ما سبق، وبما أن هذه النماذج الحاسوبية تهدف إلى بناء نماذج شاملة للإدراك من أجل إنتاج توجهات نظرية عامة إلى حد ما تتمتع بقابلية تطبيق واسعة، فإنها تستخدم مجموعة محدودة نسبيًا من المكونات (Newell, 1989)، وبالتالي لم يتم فحص العلاقات بين الأنواع المختلفة من المخططات بشكل دقيق بعد. ومع ذلك، من المتوقع أن تزودنا الدراسات المستقبلية حول الذكاء الاصطناعي بفهم شامل للعلاقات بين الأنواع المختلفة من المخططات.

7- ما هي البديهيات التي يمكن توليدها عند تطبيق نظرية المخططات على التكيف بين الثقافات؟

7-1: تعريف المفاهيم:

تم استخدام مصطلح (التكيف) (Adaptation) جنبًا إلى جنب مع مصطلحات أخرى مماثلة مثل (التثاقف) (Acculturation) و(الاستيعاب) (Assimilation). يرى الباحثان تيسكي ونيلسون (1974) أن **التثاقف** عملية مرنة وثنائية الاتجاه؛ فهي تسمح بحدوث تبادل ثقافي بين المجموعتين دون أن تفرض على الفرد تغيير قناعاته الداخلية أو التخلي عن انتمائه لثقافته الأم. فالتغيير هنا قد يطال القشور الخارجية أو السلوكيات اليومية، لكنه لا يشترط ذوبان القيم الشخصية أو الحصول على اعتراف وقبول من الثقافة المضيفة؛ وهذا ما يميزه عن **الاستيعاب** الذي يعد طريقاً ذا اتجاه واحد يتطلب تحولاً جذرياً في القيم لصالح ثقافة البلد المضيف المهيمنة. أما **التكيف**، فيشير إلى «عملية التغيير التي تحدث مع مرور الوقت لدى الأفراد الذين أتموا عملية التنشئة الاجتماعية الأولية في ثقافة ما، ثم انخرطوا في اتصال مباشر ومستمر ومطوّل مع ثقافة جديدة وغير مألوفة» (Kim, 1988, pp. 37-38). وبناء على ذلك، يُستخدم مصطلح (التكيف بين الثقافات) هنا للإشارة إلى العملية المعقدة التي يكتسب الفرد من خلالها مستوى متزايدًا من مهارات التواصل الخاصة بثقافة البلد المضيف، وتطوير العلاقات مع مواطنيه. وبعبارة أخرى، يمكن اعتبار التكيف بين الثقافات بمثابة تحوّل في مخططات التفاعل الاجتماعي الأساسية (PSI schemas) الخاصة بالفرد لصالح ثقافة البلد المضيف.

وإلى جانب تعريف **التكيف**، لا بد من تحديد الفئات المعنية بالعيش في بيئة جديدة وغير مألوفة. إذ تتعدد المجموعات التي تمر بتجربة التكيف الثقافي، ومنها: المهاجرون، واللاجئون، ورجال الأعمال، والدبلوماسيون، والعمال الأجانب، والطلاب، والعمال المتطوعون. من بين هؤلاء، يمكن تصنيف رجال الأعمال، والدبلوماسيين، والعمال الأجانب،

والطلاب، والعمال المتطوعين باعتبارهم (مغتربين مؤقتين) (sojourners) لأنهم يختلفون عن المهاجرين واللاجئين في جانبين: (أ) دوافعهم أكثر تحديدًا وموجهة نحو تحقيق أهداف معينة، و(ب) مدة إقامتهم في ثقافة جديدة أقصر من المهاجرين واللاجئين، فعادةً ما يقضي (المغتربون) من ستة أشهر إلى خمس سنوات في ثقافة جديدة بينما يعتزمون العودة إلى بلدانهم الأصلية (Furnham, 1988, p. 43). لذلك، فإن الغرض من هذا القسم هو تطبيق نظرية المخططات على التكيف بين الثقافات للمغتربين، وصياغة البديهيات (Axioms) الخاصة بهذا المجال البحثي.

وقبل المضي قدمًا في الطرح، ينبغي أن نشير إلى أن الهدف من النظرية هو تقديم تفسير للظاهرة التي تتم دراستها، وبالتالي يمكن صياغة بعض العبارات النظرية (البديهيات والنظريات). ووفقًا لبلالوك (1969)، فإن البديهيات هي قضايا تتضمن متغيرات يُفترض أنها مرتبطة بها بشكل سببي مباشر. وهكذا، ترتبط البديهيات عادة بنظرية القوانين الشاملة والعلاقات السببية. ومع ذلك، يجادل بيلي (1970) بأن افتراض أن النظريات البديهية يجب أن تعبر عن علاقات سببية سيؤدي إما إلى نظريات مشوهة أو إلى غياب النظريات حول العلاقات غير السببية. ويؤكد أن البديهيات قد تصف (علاقات سببية، أو ارتباطية، أو غائية). وسنقوم، في هذه الورقة، باتباع نهج (بيلي)، حيث ستعبر البديهيات عن علاقات سببية أو ارتباطية أو غائية. وبمجرد صياغة هذه البديهيات، يتم استنتاج النظريات (Theorems) منها (بلالوك، 1969). وعلى الرغم من أن البديهيات ليست قابلة للاختبار المباشر، إلا أنها توضح الافتراضات الأساسية للنظرية. وفي حين يُفترض صحتها، يتم دعمها أيضًا بشكل غير مباشر من خلال النظريات التي تخضع للتحقق التجريبي (النظريات لم تُعرض هنا).

في هذه الورقة، يتم تطبيق نظرية المخططات على التكيف بين الثقافات للمغتربين في المجالات الوظيفية التالية للمخططات: تطوير المخططات، والتنظيم الداخلي لها، والوظائف الموجهة بالمخططات مقابل الموجهة بالبيانات، وأخيرا تعديل المخططات وتغييرها.

2-7: تطور المخططات:

عندما يتفاعل الأشخاص مع أفراد من نفس الثقافة في مواقف معينة، أو يتحدثون عن معلومات معينة بشكل متكرر، فإنه تتولد لديهم «مخططات ذهنية» تُخزَّن في ذاكرتهم طويلة المدى. وكلما انخرطوا أكثر في مواقف مشابهة أو تبادلوا معلومات مماثلة، أصبحت هذه المخططات أكثر تنظيمًا وتجريدًا وإحكاما. وهكذا، فإن الأبحاث حول تطور المخططات تشير إلى:

البديهية 1: كلما كرّر الفرد سلوكا قائما على مخطط ذهني معين، زادت احتمالية تخزين هذا المخطط في ذاكرته.

من خصائص المخططات الذهنية، وفقًا لتشيس وإريكسون (1982)، أنها تقوم بتوجيه عملية ترميز المعلومات عبر صهر التفاصيل الدقيقة ودمجها في «وحدات معرفية كبرى» ذات دلالة. وبعبارة أخرى، فإن أداء الأفراد الذين يمتلكون مخططات منظمة تنظيما جيدًا يرتبط بقدرتهم على الإدراك والتفكير من خلال هذه «الأطر الدلالية المتكاملة». وتُعد دراسة سبيليتش وزملائه (1979) مثالًا ممتازًا. حيث تم تقسيم المشاركين، إلى مجموعتين: الأولى ذات معرفة عالية، والأخرى ذات معرفة منخفضة، بناءً على اختبار معرفي من 45 بندًا حول معرفة رياضة (البيسبول). ثمّ عُرض عليهم نص يتحدث عن هذه اللعبة، وطلب منهم تدوين كلّ ما يتذكرونه حوله. وقد أظهرت النتائج أنّ ذوي المعرفة العالية تذكروا تفاصيل أكثر حول الأفعال الحاسمة التي أثرت في نتيجة المباراة، كما رتبوا الأحداث تسلسليا بشكل صحيح. وفي المقابل، ركز ذوو المعرفة المحدودة على تفاصيل هامشية لا علاقة لها بجوهر اللعبة. وتخلص هذه الدراسة إلى أن المعلومات السابقة (المخططات) توفر سياقًا ذا معنى لاكتساب معلومات جديدة. وهذا يقودنا إلى البديهيات التالية:

البديهية 2: إنّ إخفاق المغتربين في تمييز الأفعال والسلوكيات الجوهرية للتفاعل السليم مع ثقافة البلد المضيف، يرجع بشكل أساسي إلى افتقارهم إلى مخططات التفاعل الاجتماعي الأساسية (PSI Schemas) لتلك الثقافة.

البديهية 3: إن اكتساب مخططات التفاعل الاجتماعي الأساسية (PSI Schemas) لثقافة البلد المضيف هو شرط ضروري لتحقيق التكيف الثقافي للمغتربين مع تلك الثقافة.

7-3: التنظيم الداخلي للمخططات:

وفقًا لنظرية المخططات، يمكن تقسيم أي سلوك بشري معين إلى مجموعة من المخططات التي تشكل فيما بينها «بناء هرميا». فعلى سبيل المثال، يمكن تقسيم السلوك البشري في موقف معين إلى مخططات مثل السياق، والدور، والاستراتيجية، والإجراءات، ويتم تقسيم هذه المخططات بدورها إلى مخططات فرعية. وتتربع المخططات العامة والشاملة على قمة هذا الهرم. وهي التي تتولى تنظيم المخططات الأكثر تفصيلاً لتحقيق أهداف محددة. من ذلك ما أورده جون تيرنر (Turner, J, 1987, p45) من أن «مخططات الذات» لها ثلاثة مستويات على الأقل مثل المستوى الأعلى للذات ككائن بشري، والمستوى المتوسط الذي يُعرّف الشخص كعضو في مجموعات اجتماعية معينة، والمستوى الأدنى الذي يُعرّف الفرد كشخصية محددة وفريدة بذاتها.

إنّ استرجاع المعلومات من الذاكرة يتطلب التنقل عبر مستويات متعددة في شبكة المخططات، أي أن تفعيل المخططات يمتد من مخطط معين إلى المخططات المرتبطة به. فعلى سبيل المثال، عند اختيار مخطط التواصل مع العائلة (كمخطط سياقي)، تُفعّل تلقائيا مخططات الدور والاستراتيجية والإجراءات الأكثر ملاءمة لهذا السياق. وهكذا، عندما يسترجع المرء مخططًا من ذاكرته، فإنه يستدعي معه «كتلة دلالية» من المعارف المرتبطة بالموقف الراهن، مما يغنيه عن الحاجة للبحث عن كل جزء من تلك المعرفة بشكل منفصل (Turner, R. 1994, p. 23). وإحدى الفوائد الإضافية هي أن المعرفة التي قد يصعب تذكرها منفردة، يتم استحضارها بيسر كجزء من هذه الكتلة المعرفية المدمجة. وعلاوة على ذلك، وبما أن أجزاء النظام مرتبطة ببعضها، فإن أي تغيير في جزء معين (كاختيار استراتيجية تواصل محددة مثلاً) يؤدي إلى تغيير في الأجزاء الأخرى، ومن ثم ينعكس على النظام الكلي، أي على «السلوك» في نهاية المطاف. وبناءً على ما تقدم حول التنظيم الداخلي للمخططات، يمكن صياغة البديهيات التالية:

البديهية 4: مخططات الحقائق والمفاهيم، والأشخاص، والذات، والأدوار، والسياق، والإجراءات، والاستراتيجية، والعاطفة (مخططات التفاعل الاجتماعي الأساسية (PSI Schemas)) مترابطة فيما بينها، وتشكل شبكة متكاملة من المخططات لإنتاج السلوك. وبناء عليه، فإنّ أي تغيير يطرأ على أحد هذه المخططات فإنه يؤدي بالضرورة إلى تغييرات في جميع المخططات الأخرى وفي النظام بأكمله في النهاية (أي، في السلوك).

البديهية 5: يعدّ استيعاب طبيعة العلاقات القائمة بين مخططات التفاعل الاجتماعي الأساسية (PSI Schemas) لثقافة البلد المضيف شرطا ضروريا لتحقيق التكيف الثقافي لدى المغتربين.

7-4: الوظائف الموجهة بالمخططات مقابل الوظائف الموجهة بالبيانات:

إنّ أحد أهم افتراضات نظرية المخططات هو أن المخططات يتم بناؤها من خلال العديد من التجارب المتكررة مع أحداث أو معلومات متشابهة. وبمجرد تشكّل المخطط، يميل العقل إلى معالجة المعلومات من خلاله. وهو ما يعرف بالمعالجة «من الأعلى إلى الأسفل» أو بالمعالجة الموجهة بالمخططات. وعلى العكس من ذلك، إذا تأثر الأفراد بطبيعة المعلومات نفسها، دون تطبيق مخططاتهم عليها، فإنّ هذه العملية تسمى: «المعالجة من الأسفل إلى الأعلى» أو المعالجة

الموجهة بالبيانات. ومن خلال الأبحاث حول النماذج الأولية للأفراد (مخططات الأشخاص)، وجد فورغاس (1985) أنه كلما كانت المواقف أكثر بروزًا ثقافيًا ومتفقا عليها، زادت احتمالية تفعيل «المعالجة المخططية»، بينما المعلومات ذات البروز الثقافي المنخفض كانت أكثر عرضة لأن تكون موجهة بالبيانات. ومع ذلك، تشير نتائج أخرى إلى أن المعلومات الغامضة يمكن أن تعالج بالطريقتين، فإما أن تدفع الفرد للبحث عن بيانات إضافية لاستكمال الصورة (معالجة بالبيانات)، أو يتم ملء الفراغات فيها بواسطة «خيارات افتراضية» أو «تخمينات ذكية» مستمدة من المخطط الذهني النشط (معالجة بالمخططات). ومع ذلك، يرى «بوار ورفاقه» (1979) أن البشر يميلون عموماً إلى إعادة تنظيم ما يشاهدونه أو يسمعونه ليتوافق مع توقعاتهم القائمة على المخططات؛ ذلك لأن المعالجة المعتمدة على المخططات تستهلك وقتاً وجهداً أقل بكثير من المعالجة القائمة على تحليل البيانات.

وفيما يتعلق بالمعالجة الموجهة بالبيانات والمعالجة الموجهة بالمخططات، قد تزودنا نتائج فيسك ونيوبرغ (1990) بإجابة حاسمة: حيث يتم الاعتماد على المعالجة القائمة على المخططات عندما تكون المعطيات واضحة ولا تشكل أهمية حيوية للفرد. وفي المقابل، يتم اللجوء إلى المعالجة الموجهة بالبيانات حينما يكتنف الغموض تلك المعطيات وتكون ذات أهمية بالغة بالنسبة له. والأمر الجوهري هنا، هو أن المعالجة الموجهة بالبيانات هي معالجة فردية ومجزأة، وبالتالي تتطلب انتباهًا وجهدًا، في حين أن المعالجة القائمة على المخططات لا تتطلب جهدًا وأحيانًا تكون غير واعية. يؤكد فيسك ونيوبرغ (1990) أن معظم الانطباعات عن الأشخاص تكون في البداية قائمة على المخططات. ومع ذلك، إذا كان الشخص لديه دافع لإيلاء اهتمام مفصل حول الشخص الآخر، فإن المعلومات حوله ستتم معالجتها بطريقة مجزأة. وهذا ما أكده أيضًا تايلور وألتمان (1987). عندما لاحظا أنه مع تطور العلاقات، ينتقل التواصل من مستويات سطحية وغير حميمية نسبيًا إلى مستويات أعمق وأكثر خصوصية. وبناء على هذا نقترح البديهيات الآتية:

البديهية 6: يعتمد الأفراد في إدراكهم للمعلومات الجديدة على نمطي المعالجة «الموجهة بالمخططات» و«الموجهة بالبيانات» معاً، ويتحدد تغليب أحدهما على الآخر تَبَعاً لطبيعة الموقف القائم ودوافع الفرد الشخصية.

البديهية 7: عندما يمتلك الفرد مخططات ذهنية محكمة التنظيم، فإن المعلومات ذات البروز الثقافي الواضح يغلب معالجتها عبر تلك المخططات. أما المعلومات الغامضة، فإما أن تدفع الفرد للبحث عن بيانات إضافية لاستكمال إدراك المثير، أو يتم استيفاء نقصها عبر «الخيارات الافتراضية» المختزنة في المخططات ذاتها.

البديهية 8: يميل المغتربون الذين يفتقرون إلى مخططات التفاعل الاجتماعي (PSI Schemas) الخاصة بالثقافة المضيفة إلى الاعتماد بشكل أكبر على «المعالجة الموجهة بالبيانات»، وهي عملية تتطلب جهداً ذهنياً مضاعفاً وتركيزاً شديداً.

وثمة جانب جوهري في هذا السياق يتمثل في ارتباط المعالجة الموجهة بالبيانات بمخططات الذات (Self-schemas)؛ فحسبما يرى «فيسك ونيوبيرج» (1990)، يتم اللجوء إلى المعالجة الموجهة بالبيانات عندما تكون المعلومات ذات أهمية كبرى للفرد، وعندما تتوفر لديه الدافعية لإيلاء اهتمام دقيق وتفصيلي بالشخص المستهدف. وهذا يقتضي ما يلي:

البديهية 9: عندما تكون معالجة المعلومات موجهة بالبيانات، فإن «مخطط الذات» يلعب دوراً محورياً في توجيه هذه العملية.

5-7: تعديل المخططات وتغييرها:

في ضوء نظرية المخططات، يؤدي أي تغير في البيئة المحيطة إلى استجابة فورية في «مخطط السياق»، وهو ما يستتبع بدوره تغييراً في مخططات الأدوار والاستراتيجيات والإجراءات؛ بعبارة أخرى، تقوم المخططات بعملية «تنظيم ذاتي». ويرتبط هذا التنظيم الذاتي بمفهوم «الاستتباب» أو «التوازن»، (Homeostasis) والذي يعني قدرة المخططات على إجراء تعديلات تصحيحية ذاتية للحيلولة دون الانهيار المعرفي (تفكك الأجزاء عند تعرضها للضغوط) (Cannon, 1968, p. 258). فعندما يواجه الأفراد مواقف غير مألوفة في الثقافة المضيفة -حيث يفتقرون للمخططات الملائمة- يقعون تحت وطأة الضغط النفسي (Stress) بسبب تفكك مخططات السياق وما يرتبط بها من مخططات أخرى. وفي هذه الحالة، يلجأ المغتربون عادةً إلى توجيه انتباههم بشكل انتقائي -عبر وظيفة تركيز الانتباه في مخططات السياق لديهم (Turner,R, 1994, pp. 53, 57)، محاولين إيجاد نوع من التكامل للمعلومات باستخدام مخططاتهم المستمدة من ثقافتهم الأم؛ وهذا بحد ذاته يُعد نموذجاً لعملية «الاستتباب» أو التنظيم الذاتي. ومع ذلك، لا يقتصر الأمر على مجرد الحفاظ على التوازن، بل يمتد ليشمل «التوجيه الذاتي» (Self-direction) نحو البيئة المتغيرة، بحيث يعمد الأفراد إلى تعديل أو تطوير بُناهم الداخلية (أي المخططات المسبقة لثقافتهم الأم) كشرط أساسي للبقاء.

أوضح (روميلهارت ونورمان) (1978) هذه الجوانب من خلال ثلاث عمليات أساسية هي: الضبط (Tuning)، والنمو التراكمي (Accretion)، وإعادة الهيكلة (Restructuring). ويقصد **بالضبط** إجراء تعديلات طفيفة ومؤقتة في المخططات لمواجهة مشكلة عابرة؛ حيث تتمدد المخططات وتتشكل «مجازاً» للحظات من أجل استيعاب موقف مستجد. فعلى سبيل المثال، يقوم الأمريكي الذي يزور أستراليا بـ «ضبط» مخططاته الذهنية الخاصة بالذئب أو الأرنب المألوفة في أمريكا الشمالية ليفهم «ذئبا تسمانيا» أو «الأرنب ذو الأذنين الطويلتين» (الباندیکوت)؛ فإدراكه لهذه الحيوانات يعتمد ببساطة على الضبط الدقيق لمخططاته الموجودة مسبقاً. أما **النمو التراكمي**، فيشير إلى تعديل تدريجي ودائم في المخطط؛ ففي كل مرة يتلاءم فيها المخطط مع موضوع أو حدث أو موقف جديد، فإنه يسجل النتائج بداخله. وببطء، يعدل المخطط من شكله وتعقيده ليتناسب مع متطلبات البيئة. وخير مثال على ذلك هو حال المغتربين الذين قضوا فترات طويلة في الثقافة المضيفة (أكثر من خمس سنوات مثلاً)، حيث يعجزون عن التمييز بين مخططات ثقافتهم الأم وتلك التي اكتسبوها في المهجر بسبب التعرض الطويل لتلك البيئة. وأخيراً، تمثل **إعادة الهيكلة** تغييراً مفاجئاً وضخماً في المخططات القائمة. وبحسب (روميلهارت ونورمان)، قد تحدث إعادة الهيكلة بشكل تلقائي بعد تعرض كافٍ لتجارب متناقضة، أو من خلال التأمل الواعي في تجارب الفرد، أو عبر جهود نشطة لإعادة تنظيم المعارف. وتشمل الحالة الأخيرة التعليم الرسمي، حيث يحاول المعلمون غرس مخططات ذهنية جديدة. وبناءً على ذلك، تبرز البديهيات التالية:

البديهية 10: يمر المغتربون في الثقافة المضيفة بمرحلتي «التنظيم الذاتي» و«التوجيه الذاتي». ففي مرحلة التنظيم الذاتي، يسعى المغتربون جاهدين لفض الغموض وتحقيق تكامل المعلومات من خلال مخططاتهم الذهنية المسبقة (المستمدة من ثقافتهم الأم) عبر تعديلها تدريجياً. أما في مرحلة التوجيه الذاتي، فإنهم يشرعون بنشاط في إعادة تنظيم مخططات ثقافتهم الأصلية أو ابتكار مخططات جديدة كلياً بغية التكيف مع بيئة الثقافة المضيفة.

البديهية 11: تتجسد التجارب الأولية للمغتربين في الثقافة المضيفة في صورة حالة من «عدم اليقين المعرفي» والقلق؛ وذلك نظراً لافتقارهم إلى مخططات التفاعل الاجتماعي (PSI Schemas) الخاصة بتلك الثقافة.

6-7: التطبيقات المقترحة:

سيتم استخلاص الآثار المترتبة على هذه الدراسة عند فحص دراسات أخرى من المنظور الموصوف هنا. وعلى سبيل المثال، ستحلل هذه الورقة دراسات التواصل بين الثقافات التي أجراها «غوديكانست» وزملاؤه بكثافة؛ حيث يرى غوديكانست أن «التواصل الفعال [بين الثقافات] يُضبط من خلال قدرتنا على إدارة قلقنا بوعي، وتقليل حالة عدم اليقين تجاه أنفسنا وتجاه الأشخاص الذين نتواصل معهم» (Gudykunst, 1993, p.38). وتنبثق الافتراضات النظرية الأساسية لهذا الادعاء من «نظرية تقليل عدم اليقين» التي طورها (بيرجر) وزملاؤه. فحين يتفاعل الأفراد مع شخص غريب، تتولد لديهم رغبة قوية في تبديد الغموض المحيط بذلك الشخص. وتتضمن محاولاتهم لتقليل عدم اليقين في المواقف المستجدة نمطاً من البحث عن المعلومات (لتقليل عدم اليقين) وتخفيف حدة التوتر (تقليل القلق). وتتعامل نظرية تقليل عدم اليقين في المقام الأول مع التواصل بين الأفراد من الثقافة ذاتها، مما يشير إلى أن النظرية تقوم على افتراضين أساسيين:

أ/ أن أطراف التفاعل يتشاركون مخططات التفاعل الاجتماعي (PSI Schemas) الخاصة بثقافتهم.

ب/ أن أطراف التفاعل ينجحون في تقليل عدم اليقين من خلال الحصول على البيانات الناقصة عن الغريب عبر استراتيجيات «موجهة بالبيانات» في الغالب.

ومع ذلك، يختلف التواصل بين الثقافات عن التواصل بين الأفراد [داخل الثقافة الواحدة] في ثلاثة جوانب أساسية:

أ/ قد لا يتشارك أطراف التفاعل في التواصل بين الثقافات مخططات التفاعل الاجتماعي (PSI Schemas) نفسها.

ب/ قد يكون كل من «عدم اليقين» و«القلق» هما الحالتين النفسيتين الناتجتين حين لا يمتلك الغرباء (سواء كانوا مبتعثين أو مهاجرين) المخططات الملائمة للثقافة المضيفة.

ج/ لا يقتصر سلوك البحث عن المعلومات لدى الغرباء على جمع بيانات حول الطرف الآخر فحسب، بل يمتد ليشمل محاولاتهم الحثيثة **لاكتساب مخططات التفاعل الاجتماعي (PSI Schemas)** للثقافة المضيفة؛ ومثال ذلك: قراءة كتب عن هذه الثقافة، أو حضور تدريبات في التواصل بين الثقافات، أو استشارة أصدقاء عاشوا في الثقافة ذاتها لفترة طويلة.

وتشير هذه الاختلافات إلى ضرورة الحذر عند التطبيق المباشر لـ «نظرية تقليل عدم اليقين» في مجال التواصل بين الثقافات؛ نظراً لأن هذه النظرية لا تغطي سلوك الغرباء في البحث عن المعلومات المتعلقة بـ «بنية المخططات» نفسها في الثقافة المضيفة.

لذلك ينبغي توثيق التواصل البشري وتحليله بدقة متناهية قبل التمكن من تطوير نظريات مفيدة، أو تنقيحها، أو حتى رفضها في ضوء الاكتشافات الجديدة التي قد تتعارض معها. إننا ندرك الآن أن الذاكرة البشرية تعمل على انتقاء المعلومات، وتجريدها، ودمجها، وتنميطها. فالمعلومات المتناقضة (مع ما نعرفه) قد يطويها النسيان، بينما قد يتم استحضار المعلومات المتسقة وتوليدها عند التذكر لاحقاً. ويمكن تلخيص كل هذه الظواهر المتنوعة بشكل ملائم من خلال «نظرية المخططات».

وفي هذا الصدد، يؤكد (لي فوا) أنّ: «ثمة علاقة وثيقة بين النظرية [نظرية المخططات] والظواهر المدروسة؛ ونظراً لأن هذه النظرية تستوعب حقائق متنوعة حول الذاكرة، فإننا نتبنى تقليداً علمياً طويلاً ونزعم بأنها تقدم تفسيراً وافياً

لتلك الخصائص. وبالطبع، قد لا تكون هي التفسير الوحيد الممكن، أو حتى الأمثل، ولكن إذا نجحت نظرية واحدة في وصف عدة حقائق متباينة بدقة ... فإنه يمكننا طرحها كإطار تفسيري معتمد» (Le Voi, 1993, p.176).

وهكذا، فإن تطبيق نظرية المخططات على التواصل بين الثقافات لدى **المغتربين** قد يمثّل خطوة ضرورية تمكنّنا من توثيق وتحليل هذه الظواهر بدقة.

8- خاتمة:

كان الغرض من هذه الورقة هو فحص نظرية المخططات الذهنية لاستجلاء ظواهر التواصل بين الثقافات، ولا سيما التكيف الثقافي لدى المغتربين. وقد تم استقصاء ثمانية أنواع أساسية من المخططات التي تُعد ركيزة للتفاعلات الاجتماعية البشرية، كما فُحصت وظائف هذه المخططات في معالجة المعلومات. وعلاوة على ذلك، اقترحت نظرية المخططات -عند تطبيقها على التكيف الثقافي للمغتربين- إحدى عشرة بديهية شملت المجالات الوظيفية التالية للمخططات: تطور المخططات، وتنظيمها الداخلي، والموازنة بين وظائف المعالجة الموجهة بالمخططات وتلك الموجهة بالبيانات، وأخيراً تعديل المخططات وتغييرها.

وفي الدراسات المستقبلية، يغدو من الضروري صياغة نظريات (Theorems) واختبارها ميدانياً للتحقق من صحة البديهيات التي وُضعت هنا. وعند تحقق ذلك، يمكن توظيف النظرية في تصميم وتنفيذ دراسات عبر ثقافية تساهم في تيسير تكيف الأفراد مع بيئة الثقافة المضيفة.

- المراجع:

Berger, C. R. (1991). Chautauqua: why are there so few communication theories: communication theories and other curios. *Communication Monographs*, 58, 101-113.

Cannon, W. B. (1968). Self-regulation of the body. In W. Buckley (Ed.), *Modern systems research for the behavioral scientist: a sourcebook* (pp. 256-258). Chicago, IL: Aldine.

Cohen, G., Kiss, G., & Le Voi, M. (1993). *Memory: current issues* (2nd ed.). Philadelphia, PA: Open University Press.

Furnham, A. (1988). The adjustment of sojourners. In Y. Y. Kim & W. B. Gudykunst (Eds.), *Cross-cultural adaptation* (pp. 42-61). Newbury Park, CA: Sage.

Gudykunst, W. B. (1993). Toward a theory of e€ ective interpersonal and intergroup communication: an anxiety/uncertainty management (AUM) perspective. In R. L. Wiseman & J. Koester (Eds.), *Intercultural communication competence* (pp. 33-71). Newbury Park, CA: Sage.

Hudson, J. A. (1990). The emergence of autobiographical memory in motherchild conversation. In R. Fivush & J. A. Hudson (Eds.), *Knowing and remembering in young children* (pp. 166-196). New York: Cambridge University Press.

Hudson, J. A., & Nelson, K. (1983). Effect of script structure on children's story recall. *Developmental Psychology*, 19, 625-635.

Kant, I. (1963). *Critique of pure reason* (2nd ed.) (N. K. Smith, Trans.). London: Macmillan. (Original work published 1787).

Kim, Y. Y. (1988). *Communication and cross-cultural adaptation*. Clevedon: Multilingual Matters.

Le Voi, M. (1993). Overview. In G. Cohen, G. Kiss & M. Le Voi (Eds.), *Memory: current issues* (2nd ed.). Philadelphia, PA: Open University Press.

Markus, H. (1977). Self-schemata and processing information about the self. *Journal of Personality and Social Psychology*, 35, 63-78.

Matlin, M. W. (1989). *Cognition*. Chicago: Holt, Rinehart and Winston.

Sanford, A. J. (1985). *Cognition and cognitive psychology*. London: Lawrence Erlbaum Associates.

Taylor, S. E., & Crocker, J. (1981). Schematic bases of social information processing. In E. T. Higgins, C. P. Herman & M. P. Zanna (Eds.), *Social cognition: the Ontario symposium* (Vol. 1, pp. 89-134). Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum.

Turner, J. C. (1987). *Rediscovering the social group*. Oxford, UK: Basil Blackwell.

Turner, R. M. (1994). *Adaptive reasoning for real-world problems: a schema based approach*. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum Associates.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

إلياس بليح،عبد الحميد نوراني (2026) **مقاربة عرفانية للتواصل بين الثقافات في ضوء نظرية المخطط هيروكو نيشيدا. جامعة شيزوكا، اليابان** ، مجلة تطوير العلوم الاجتماعية، المجلد 18(العدد2)، الجزائر : جامعة زيان عاشور الجلفة، ص.ص 32-47.